

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

إليك أعتذر ، أيها الفزالي ، فإكنت أحسب أن السياسة ستجني
 علينا كما جنت عليك — حصار مزروع ا — اللهم اجعل
 هيكل باشا هو الدكتور هيكل — مواطف نبيلة من شعب نبيل

إليك أعتذر ، أيها الفزالي ا

في سنة ١٩٢٢ كنت أفضى أكثر الوقت في تحرير كتاب
 « الأخلاق عند الفزالي » وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد
 واجهتُ بها نار الثورة المصرية ، واكتوت يدي بلهب الجدل
 والصيال حول الطالب الوطنية ، فأثر ذلك في عقلي وتفكيرى
 إلى أبعد الحدود ، وحلنى ذلك للتأثير على السخرية من اعتزال
 الفزالي المجتمع السياسى وابتماده من الضجيج الذى كانت
 تشهه الحروب الصليبية في ذلك الحين

ثم صرّت أعوام راضى فيها الدهر بمد الجروح ، ففرتُ
 أن الفزالي لم يكن من الجبناء ، وإنما كان من الحكماء
 وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال
 بالسياسة ؟ وهل أخطأ محمد عبده حين استماد بالله من مادة :

دلوئى على رجل واحد غمس يده في السياسة ثم سلم من
 الأقاويل والأراجيف ا

لا بأس من تجريح الرجل الآثم ، ولكنى أستطيع أن أذكر
 عدداً من الرجال أهيئوا في السياسة بغير حق . وأعجب من ذلك
 أن أستطيع الإشارة إلى عدد من الرجال أهيئوا بسبب
 الانسحاب من ميدان السياسة ، فهى عقرب تلح بلا تمييز
 بين لتوى والرشد

إن أقطاب السياسة في مصر هم عيون الأمة من الوجهة
 القومية ، وهم أيضاً من الأقطاب في ميادين العلم والأدب والذكاء ،
 ولكن ما نصيب الأديب من الاستفادة بقول هؤلاء الزعماء ؟
 الرئية تلاحقك إن فكرت في زيارة هذا الزعم أو ذاك ،
 والشبهات تحيط بك إن رأيت أن تزود عقلك بمعرفة أهل زمانك
 فتزور الأندية السياسية من وقت إلى وقت ، ومحمك عرض

رجيم لأهل اللظنون إن طاب لك أن تحفظ الأدب مع أقطاب
 عصرك فتؤدى واجب التهمة أو واجب العزاء في بعض الظروف
 لك أن تجالس الفارغين من أحلاس القهوات ، وليس لك
 أن تظفر بمجالسة رجل كبير له منزلة سياسية ، فإن فعلت فأنت
 وصولى ينتظر الجزاء القريب أو البعيد

أليس هذا هو الواقع في هذه البلاد ؟

بأى حق يُجرم الأديب في مصر من التعرف الصحيح إلى
 من يسيطرون على السياسة المصرية ؟

وعمن يأخذ معانى للتفكير في مصائر الأمور الوطنية إذا حرم
 التزود بأفكار أولئك الرجال ؟

لو اتصل أديبنا بالزعماء لوجدوا لأدبهم آفاقاً أوسع من
 الآفاق التى يعرفون ، الآفاق المحدودة التى لا تمتدح غير البصر
 للكليل ، الآفاق المزدحمة بأهل المقم والنضوب من الأشباح
 التى تندو وتروح وليس لها زاد غير مضغ الحديث المعاد من ففات
 الزور والبهتان

كيف يجوز لأديب أن يقول إنه عاش في هذا المصر مع أنه
 لم يعرف أحداً من أمثال مصطفى النحاس ومحمد محمود وعلى ماهر
 وحلى عيسى وعلى الشمسى وعبد الفتاح يحيى ومحمود النقراشى
 ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق وحسن صبرى وعبد الرحمن عزام
 وحافظ رمضان ولطاف السيد وأحمد ماهر ومكرم عبيد وصبرى
 أبو علم ونجيب الملالي ومحمود بسيون ، ومن إلى هؤلاء من
 الوزراء والنواب والشيوخ ، وإنما زيدا لتمثيل لا الاستقصاء ؟

الأديب الذى لا يعرف أمثال هؤلاء معرفة صحيحة ليس بأهل
 لمعرفة روح العصر الذى يعيش فيه ، وهو أيضاً أكذب
 للكاذبين حين يدعى أنه أثر في عصره تأثيراً قوياً أو ضيفاً ،
 فما يمكن لأديب أن يكون من أصحاب السُلطة الأدبية إلا حين
 يستطيع بلسانه أو بقلبه أن يوجه الميطرين على مصائر البلاد إلى
 غاية سامية أو مطلب شريف

ثم ماذا ؟

ثم تقع البشاعة التى تشهد آثارها في كثير من الأحيان
 فإزعماء ناس كسائر الناس ، وعندهم أوقات يزجونها بالسمر
 والحديث ، فإذا بمنمون وقد غاب عن ناديتهم كبار الأدباء ؟
 يلتفتون فيرون أنديةهم قد اكتظت بأهل اللغو والنضول
 من الذين يؤذيتهم أن يكون لرجل من أهل الأدب أديم صحيح ،

والدوقية والقومية بين الساسة والأدباء ؟
 إن طالت هذه الجفوة بين هاتين الطائفتين فسيكون مصير
 الأدب من أقبح المصائر ، فسيُحصَر وهو راغم في الحديث
 عن مشكلات الحاجة خذّ وجة والملمّ مشحوت ا
 وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل سعد زغلول ليلة
 الحادث الذي خرج به الجيش المصري من السودان ليخلق منه
 قصة أرواح من قصة الزوج الذي خاتمه زوجته الحشفاء ؟ ا
 وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل علي ماهر في الليلة
 التي مات فيها جلالة الملك فؤاد ليصور عواطف الوزراء في قلقات
 التاريخ ؟
 وأين ؟ وأين ؟
 تلك أيامٌ خَلَّتْ ، فليستعدّ الأدباء لفهم هذا القول ،
 فقد ينضمهم في الأيام المقبلة

محصار مزعج

ويمكن بعد هذا أن نذكر بوضوح أن الأدباء يعانون ضرباً
 من الحصار المزعج ، فهم يسيرون عن الأوساط السياسية خوفاً
 من تهمة الوصولية ، وهم يسيرون من الأجواء الشعبية خوفاً من
 تهمة الإسفاف ، وهم يسيرون من الأوساط الفنية خوفاً من تهمة
 التزق والعليش ، فقد شاع صدقاً أو كذباً أن للفنانين لهم بدوات
 تخرج عن الوقار في بعض الأحيان
 نحن إذآ في حصار . ومع ذلك يُطلب منا أن نصف جميع
 طبقات المجتمع ، وأن يكون أدبنا صورة صحيحة لما يثور في ضمير
 المجتمع من عواطف وآمال
 وأنا أشهد على نفسي بالمرض من هذه الناحية ، فأنا أجنب
 رجال السياسة بجانب مقصودة ، لأنني أتوم أن اتصالي برجال
 السياسة قد يصورني أمام الجمهور بصورة من يطلب الصيد . وقد
 حاولت إبراء نفسي من هذا المرض فلم أفلح ، وكان من آثار هذه
 اللمة أن تمضى الأعوام ولا أتتفع بمحادثة زعيم أنقل عنه وينقل
 عني ، فنمئذنا بالتأكيدي آراء وأفكار قد تنفع الزعماء بعض النفع ،
 وقد توجههم إلى التمسب للأدب الرفيع ، وهو في حاجة إلى
 عصبية قوية ترفع ما يمترض طريقه من عقبات وأشواك
 وقد أزعجت قراء الرسالة مرات كثيرة باقتراح لم أجده من

وعندئذ يصحّ عند الزعماء أن دنيا الأدب دنيا فقد وغبظ وليس
 فيها مجال للفكر الثاقب والرأي الرشيد ، فيكتفون بإزاد الخبيث
 الذي يقدمه إليهم إلا فاكون من أشباه الأدباء . قاتلهم الله
 أني يؤفكون ا

سعد زغلول أعزّ أدب مصطفي النفلوطي
 وعبد الخالق ثروت أعزّ أدب طه حسين
 ومحمد عبده أعزّ أدب حافظ إبراهيم
 فهل تعرفون بعد هذه الأسماء أن زعمياً مصرياً عاون على خلق
 الفرص لأديب جديد ؟

وكيف نصل إلى التماون المنشود والموائن تقوم من الجانبين ؟
 فالأدباء يتفرون من الاتصال برجال السياسة خوفاً من تهمة
 الوصولية
 وللساسة لا يعرفون من الأدب إلا أنه وسيلة للدعوات الحزبية
 وبين خوف أولئك وغرض هؤلاء تضيع الفرص على الأدب
 الصحيح الذي يمثل ما في المجتمع من آراء وأهواء ، وجقائق
 وأباطيل .

أما بعد فالأدب في خطر ، لأن أمجابه في عزلة عن الساسة ،
 وللساسة يملكون أكثر الوسائل في توجيه المجتمع ، لأن الحاكم
 يملك في اليوم الواحد ما لا يملك الأديب في الأعوام الطوال
 فإن كنتم في ريب مما أقول فتذكروا حوادث التاريخ ،
 فقد كان الناس منذ أقدم المصور يعرفون أن الأدب لا يدّ له
 من سناد ليؤدى واجبه على الوجه الصحيح ، وسناد الأدب
 هو الهولة ، والهولة هي الساسة الذين يستمعون للقول فيتبعون
 أحسنه ، وأحسن القول هو التوجيه الذي يسدر عن كبار الأدباء
 أليس من المعجب أن يكون قداماء اليونان أعقل منا وبيننا
 وبينهم أجيال وأجيال ؟

ومن أجل هذا كان الأدب لليوناني القديم غنياً بالحديث
 عن سياسة الأمم والشعوب ، وكذلك كان الأدب العربي
 في المصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، فلما خربت
 جذوة العرب تخاذل الأدب وترك الحديث عن السياسة العالية
 ليتحدث عن المناسفة بين الربيع والحريف ، وليكثر للقول
 في الألقاز وخصائص الأيام والأسابيع
 أين ما دعوتُ إليه ألف مرة من خلق الصلات الروحية

الدكتور هيكل ، الأديب المشهور الذى كان يحامى عن الأدب وأهله في جريدة السياسة ، وأجمعوا على أنه هو بينه صاحب كتاب « ثورة الأدب »

والحق أن وزيرنا الجديد فيه مشابه من الدكتور هيكل ، وإن كنت أختص ألا يكون إياه ، فمن واجبي نحو الأدب الذى أنتشر بالانتساب إليه أن أطلب من الوزير الذى يُشبهه الدكتور هيكل أن يتفضل فيخص الأدب بنظرة من نظراته الثوابت ، ونحن بكل تواضع نقترح أن يكون لكبار الأدباء بعض ما لكبار العلماء من منازل التشريف . فإن كان للعلماء — وهم اصطلاحاً رجال الدين — أولى منا بالرعاية لأنهم من أهل الآخرة ، فنحن أحق بالمعطف العاجل لثلاثا يكتب علينا الحرمان في الدارين !

وليكن مفهومنا جداً أنى أقول هذا للكلام وأنا أتوهم أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل ، فإن ثبت أن زملائي بوزارة المعارف خدعوني وأن هيكل باشا شخص غير الدكتور هيكل ، فأنا أعتذر لعالي الوزير عن هذه الكلمات الجافية ، وأرجوه أن يثق بأنى برىء من الأدب والأدباء !

لو صح أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل لكانت فرصة ذهبية لتصرة الأدب الرفيع ، فقد نغريه بالوعود فنزعم أن أهل الأدب يحفظون الجليل ، وأنهم لن ينسوا فضله في إعزاز الشخصية الأدبية بالديار المصرية

اللهم اجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل !

عرواطف نخيلة مع سحاب نخيل

في صباح اليوم السادس عشر من حزيران تلقيت إشارة تليفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألني عن اسمي الكامل وعن مناصبي بوزارة المعارف ، وأردت أن أعرف الموجب لهذه الأسئلة المفاجئة ، فقيل : إن أجوبتها ستقدم إلى قصر جلالة الملك تمهيداً لوسام سألتقاه من حكومة المراق

وفي صباح اليوم الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم السيد عبد القادر أحمد للموظف بمديرية العناية في بغداد يهنئني بوسام الرفاقين

ومعنى تلك الإشارة وهذه البرقية أننى خطرت في بال أهل للصدق والوفاء من أقطاب بغداد

يصنى إليه ، وهو أن يكون الأدباء مكان في الحفلات الرسمية ، فجميع الطوائف تمر في خواطر رجال الدولة عند المناسبات الخطيرة ولا ينسى غير الأدباء . وإلا فإن الأديب الذى دعى بصفته الأدبية إلى حضور إحدى الحفلات في قصر عابدين أو قصر الزعفران ؟ وزيد المخرج حين يكون الأديب موظفاً ، فهو لا يدعى لأية حقلة رسمية إلا حين يصل إلى درجة مالية تضيفه إلى طبقات الأعيان ، والعياذ باللذوق !

والدرجات المالية للموظفين هي الميزان في كثير من الشئون ، ولا سيما شئون التشريف . ويكاد يكون من المستحيل أن يمر الموظف في خاطر أية جهة رسمية إلا بعد أن يصل مرتبه إلى كيت وكيت ، ولو كان من أقطاب الأدب والبيان

وكان المأمول أن يتبدل الميزان في وزارة مثل وزارة المعارف وقد تولى شؤونها وزراء من رجال الأدب أمثال : محمد علي حلوية ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمد حسين هيكل . ولكن الأمور ظلت تسير في طريقها للتقديم ، فلم يستفد الأدب شيئاً من الوزراء الأدباء ، وإن كنت أذكر بالخير للكثير أن بعض هؤلاء راعى منزلي الأدبية فتناسى أنى تناولت عليه في إحدى المجلات !

قد يقال : إن الدولة تفتح باباً من الشرحين تفكر في الاعتراف الرسمي بالقيمة الأدبية ، فكل إنسان يدعى أنه أديب ، وأن له حقاً في حضور الحفلات الرسمية !

وأجيب بأن الأدب لم يعد فوضى كما كان في الأزمان الخوالي ، فالجمهور يكاد يتفق على الإعجاب بأفراد ممدودين هم عنده الطبقة الأولى من الأدباء ، وهو كذلك يعرف من هم رجال الطبقة الثانية ومن هم رجال الطبقة الثالثة ، فما الذى يمنع من أن يكون في ذهن الدولة صورة لأدباء الطبقة الأولى لتفكر في دعوتهم إلى الحفلات الرسمية ، كما تفكر في دعوة من يمثلون بعض الجوانب من حياة المجتمع ؟

أليس من المعجيب أن يشهد الحفلات الرسمية بعض المجهولين من موظفي السفارات والقنصليات ، ثم يحرم رجال الأعلام من شهود تلك الحفلات ، ولم فيها زاد نفيس هو تدوُّق ما في المجتمع العالي من دقائق تمود على اللقم بأجزل النفع ؟

إن وزير المعارف اليوم هو صاحب المال محمد حسين هيكل باشا ، وقد سألت عنه زملائي بالمعارف فأكدوا لي أنه